ثكالى الأمة

هم المفقودون أو شئت قل "المفتَقَدون"، رجالٌ تحتاجهم الأمة، ويريدهم أفرادها بشدة؛ إذ مجموع الأمة في هذه الأوقات في فاقة وعوز شديدين، بل هناك فقدٌ أليم للرجال الذين يمسكون الرايات الحقيقية والمجازية...

واعلم أن هؤلاء الرجال يسمون بـ "القادة"، "الرجال"، "قُطب الرَحى"، "الأئمة"، وغيرها الكثير، ومع تنوع أسمائهم واختلاف صفاتهم، لكن تأثيرهم في الأمة على مر العصور متشابه، وقد يكون شديد التشابه.

فقد تعالت أصوات الضعفاء والمنكسرين، وتكالب كل الأعادي علينا تكالبَ الأكلة على القصعة (كذا وصفهم النبي ﷺ)، إذ استشرى فينا الخطر بكل أنواعه، إلا أن أشدهم هو "التفكير الأحادي" الذي هو اشتغال الناس عامة وخاصة بأنفسهم اشتغالاً مادياً قميئاً قبيحاً، مع التغافل أو الترك المتعمد لقضايا الأمة، حيث تم التدمير للشغلة النافعة، وإن وجد بعض الاهتمام فهو في غير محله، أو على غير مضماره الذي يجب أن يكون.

وما ظهرت هذه العلة، ولا تعفنت تلك الآفة إلا لضعف القادة أو عدمهم بالحبس أو القتل، أو الهروب والنفي، أو عدم التأهل (وهو الغالب).

ولا يغرنّك كثير تفاعلٍ، ولا كثرة منشوراتٍ، ونحوهما؛ فتلك تفريغات نفسية أكثر من كونها نحتاً في صخور الواقع ومعاركه.

أما غير القادرين على الكتابة والتقييد، فربما ينشغل بكثير نظر ومرئيات ونقاشات وجدليات، وما خرج المسكين عن طور المتفاعل البسيط.

وفي مجموع ما سبق، لا خيراً واضحاً ترى، ولا علماً حقيقاً تسمع، ولا دفعاً للظلم تأمل..

كيف، وهذا العدد الغفير من الأمة يرى ويسمع وينشر ما يحصل فيها ولها!

الإجابة وبكل وضوح.. القادة.

فالقادة هم الزمام، والعلماء، والأمراء، وهم -كما سبق- الرجال الذين تلتف حولهم الأمم والرعايا والأتباع.

فيبقى السؤال الملفت للعقول والأنظار فضلاً عن الأبصار، أين قادة الأمة في العقود الأخيرة من هذا الزمان؟

هل عُدموا أم أُعدموا؟

هل اختفوا أم أُخفوا؟

هل تخاذل الناس عن إنتاج قادة جدد؟

أين قادة هذه الأمة، أين رجالاتها وعلماؤها؟

فهذه الأسئلة التي تبدو متغايرة، هي في حقيقة أمرها صياغات مختلفة لسؤال واحد، أو نتاجُ لأسباب متداخلة أو متلازمة لزوما لا ينفك عن بعضه البعض بحال؛ والإجابة الشافية تحتاج عالماً ينظمها نظماً، ومحَلّاً ينسجها وعياً، وأرضاً تستقبلها عملاً.

ولذا سأحاول جاهداً -مستعيناً بالله- الإشارة إلى مدار الزلل، حيث التوصيف اللازم لرفع الليل القاتم..

فمن الأمور التي يجب البناء عليها، تقسيم القادة لأنواع على سبيل التمثيل لا الحصر، قادة فكر، وقادة ساحات، وكلاً منهما ينقسم إلى أنواع، وبينها من التداخلات ما لا يمكن ضبطه، حيث قد يجتمع في الواحد منهم النوعان فأكثر، ومنهم من يظهر فيه نوع ويعجز عن آخر.

وسواء اتفقنا أم اختلفنا، فإنه لا يمكن الحصر للقيادة في هذه الأنواع، حيث يوجد النوع الأكثر شهرة بين الناس، وهو القيادة بالمعنى البسيط، كالدعاة المصلحين بين الناس في المساجد والطرقات والهيئات الاصلاحية العامة، وهم من يقربون الناس لطريق الصواب سواء كان لهم نفع واقعياً حقيقياً أم لا.

ولكني آثرت الأنواع المذكورة لحاجة الأمة لها في هذه الأيام حتى تروي ظمأ هذه المجتمعات التي أصابها الوهن والضعف حيث أورداها المهالك.

إذاً من أين يأتي القادة، وما هي مراكز تأهيلهم؟

القادة -أيها الكريم- هم نتاج تراكمي من مجتمعات عامة، وأسر بيتية خاصة، ورؤية واضحة لأفراد مميزين، وكل هذا خاضع لنظام استقر وعمل به أجيال سابقون، فلم يكن الأفراد حالاتٍ تجريبيةً، ولا مخاضاً جديداً، بل كان القادة إفرازات طبيعية، ونتيجة محتومة لمقدمات مسلّمة، قد تتغير قليلاً، لكنها لا تتبدل بالكلية.

فالقادة ليسوا نبتاً شيطانياً -كما يسميه العامة-، بل هم نتاج التداخل العلمي والسياسي والمجتمعي لأمة كاملة، وإن لم يقصد كل أفراد الأمة هذا المعنى، أو تخاذلوا قليلاً أو أحياناً.

ومن هذه الأمثلة المشهورة التي يجب النظر لها بعين الاعتبار والتفكر، ظهور مثل الإمام أحمد، والإمام البخاري صاحب الصحيح رضي الله عنهما، فقد يبدو لمن لا خبرة له أن الظهور لمثل هذين الجبلين هو ظهور علمي مجرد، أو وُفِّقا لهذا المقام لمجرد المصادفة.

وهذا محض افتراء على هذه الأمة العظيمة الولادة بحق، حيث يجب النظر لهذا المجتمع الذي تربيا فيه، والمساجد العامرة بمجالس التحديث، والمدارس الحديثية، حيث كان في زمانهم من الطبيعي جداً، بل والمعتاد أن يخرج الطفل أو المراهق -ما دون البلوغ- إلى ساحات العلم ومجالس التحديث، بعد المكاتب -الكتاتيب- اللاتي تملأ الآفاق، وأسماء العلماء مرفوعة عالية.. فهذه صورة مصغرة من الحالة العلمية الشرعية.

أما الحالة السياسية: فانظر -مشكوراً- كل كتب التأريخ، تجد أن هذه العصور لم يتوقف فيها الجهاد في سبيل الله، ولا التدريب العسكري لأمة الإسلام بالكلية، وإن خفت في جانب فينبت في جوانب أخرى، وإن وقع التفرق والتشرذم، إلا أن التأهيل العسكري كان قائماً على قدمٍ وساق، ودواوين الجند معبأة بمن هم أهل لهذا المقام.

حتى المأمون الذي عذّب الإمام أحمد كان باعثه التدين ونشر الحق ومعاقبة أهل الباطل، كذا كان ظنه وهواه، مع جرمه الذي فعل؛ وليس هذا تعذراً له، بل حتى السوأة الفاضحة كان يُظن فيها الدين والتدين، والمحافظة على النسج العام للمجتمع.

وما حدث للإمام محمد بن إسماعيل من فتنة كان باعثها خلاف علمي ديني، ومع ألم ما حدث له، وشدة البلاء، فإن المحركات كانت دينية مجتمعية تسعى لتحقيق الترابط، مع الخطأ الشديد، والفجيعة التي ألمت ببعض علماء الأمة.

فقد يسأل آحاد الناس سؤالاً ليس مشروعاً، ولكنه قد يطرأ على خاطره، لِمَ لَمْ يسع الإمام أحمد للتدريب العسكري أو أولاده، ولا سمعنا عن غالب العلماء في هذه العصور هذا الأمر؟

قلنا: هذا سؤال قاصر بسبب الضعف في تصور ماهية هذه العصور، وقدر المؤسسية الراقية الرائعة -غالباً- التي كانت في هذه الأزمان والأوقات، حيث وجود الجيش المؤهل المرتب القائم بواجباته الشرعية من جهاد الطلب فضلاً عن جهاد الدفع، وكذلك وجود المؤسسات العاملة على توزيع ما يستحقه الناس، والحكم بينهم، ومراعاة حياتهم، من رصف الطرق، وتصريف المجاري ونحوها.

ومع كل هذا كان الإمام أحمد لا يرى جواز أخذ العطايا والهبات من الدولة، لما يرى من أنّ جزءاً من مالها يوضع في غير موضعه، ومحله الواجب، وكان يجهر بهذا.

فمنظومة الدولة كانت قائمة متكاملة، إذ الهيئات تعمل في مكانها، وتقيم واجباتها، وعلماء يعلمون ولا يكتمون حقاً، بل يُعرضون على السيف والحبس بسبب جهرهم بالحق، فأي جهاد أعظم من هذا!

ولو تتبع البسيط تراجم الأعلام لوجد لكل واحد منهم مجاهرة واضحة بالحق، فتركوا الرخص وأخذوا بالعزائم -رضي الله عنهم-، وإن ترخص غيرهم، ممن

قد يُعذر لشدة ما وُجد، إلا أن الصورة العامة لا تخلو ممن يجهر بالحق والخير، ويقيم الفرض الكفائي.

ولك مثال آخر يدلل على نوع مختلف من القادة والقيادة كأبي يوسف صلاح الدين الأيوبي، وكيفية ظهوره، وبل وكيف انتقاه الشهيد نور الدين محمود زنكي، وكيف رباه سياسياً، وكيف كانت صورة الدولة التي أُخذ منها هذا الشاب الذي رجى أن يكون طالب علم أولاً، إلا أن الله اصطفاه لأمر آخر.

والأمثلة كثيرة على بيان طبيعة الدولة التي تستطيع أن تخرج قادة من داخل الركام، وإن أصابها الوهن أو التشرذم في بعض أوقاتها..

.. وعوداً للقادة والقيادة وتصورهما، فموجِب القيادة تراكمي تراكبي، فهو مركب من أمور متداخلة، وكذا متراكم المقدمات لنتيجة حتمية...

المجتمع والأسر والسياسة، كل هذه عوامل لا يُنسب الفضل لواحد منها على الاستقلال.

ولم تختل هذه الصورة ولا هذه المنظومة بالكلية إلا بعد سقوط الخلافة العثمانية، وهي المسماة بـ "الرجل المريض" كما يعرف القاصي والداني، إلا أن مع مرضه كان النظام العام يؤهل لخروج القادة تحت عباءته وكنفه، مع ما انتقد عليها من دحضها لكل صور المعارضة فأضعفها أكثر وأكثر.

ولذا فإن صورة القيادة بعد سقوط الخلافة ليست كما كانت سابقاً، حيث اختلت موازين الدولة، وأصبحت الدول العربية الإسلامية مركزية متعنتة، وقد

ظهرت بوادر هذا التعنت والتشديد المركزي قبل سقوط الخلافة على يد محمد علي وأشباهه، حيث جُعل كل شيء للدولة.

فالهيئات التعليمية والثقافية، والإرشادية، والتجارية، والأوقاف الإسلامية، وغيرها من الدواوين قد تم الاستيلاء عليها، فضلاً عن دواوين الجيوش المجاهدة، وقد تم محو الطبقة المسماة بالطبقة الوسطى، وهم طبقة العلماء والتجار (الشهبندر)، وشيوخ الغفر والقبائل، وغيرها الكثير والكثير من المهمات التي كانت حلْقة الوصل بين الطبقة الحاكمة وعامة الشعب، فهم بمثابة (مجلس الشعب) المختار بالرضى غالباً، وكانت لهم سيادة حقيقية على الشعوب، حيث لو دخل المحتل على الطبقة الحاكمة وقتلها عن بكرة أبيها، فمن السهل أن يستعيد العلماء والتجار القوة الضاربة بالتفاف الشعب حولهم بتسليحهم والمواجهة بهم، وهو الذي وقع حين دخل الفرنسيس مصر، إلا أن محمد علي ضيع كل هذا كما هو معلوم لكل من قرأ تاريخ هذه الحقبة.

وهنا يظهر وجه الاضطراب الذي لم يمر على الأمة الإسلامية شبيهٌ له بالتطابق، وإن تداخلت بعض الصور، إلا أن صورة الدولة المركزية القائمة التي تحكم في أموال وعلم المجتمع الإسلامي بالكامل لم تكن موجودة من قبل.

فقد كان من الممكن قديماً أن يهرب أحد النبلاء أو الأقوياء الأشداء إلى الفيافي أو الغابات، ثم يلتف حوله أصحاب الهمم والحماسة، فينشئوا كياناً ودويلة صغيرة تكبر يوما ما، وما عبد الرحمن الداخل الأموي الذي هرب من العباسيين بمجهول في تاريخنا، وكذلك الشيخ عبد الله بن ياسين مع الشيخ إبراهيم اللمتوني رحمة الله على الجميع!

إذاً فمركزية الدولة الآن من أهم أسباب ضعف القادة، حيث أصبحت الدولة الحديثة بصفتها وهيئتها هي "الدين الجديد" للشعوب فاستهلكتهم قبل استهلاكهم إياها.

حيث تداخلت في كل ما يتعلق بالفرد دقّ أو جلّ، نخرج منها أجيالٌ من العلماء والقادة البسطاء فكرياً وعلمياً وتربوياً، وتدنى سقف أحلامهم وطموحاتهم، بتوقفه عند منصب معين أو قريب يسهل له دخول المشفى الفلاني أو المدرسة الفلانية لأحد أولاده، أو يخفف معاناته أو أولاده في الجيش الإلزامي!

فغاية ما يبغاه الواحد منهم أن يخرج في قناة فضائية أو يجلس في مسجد كبير أمام الكاميرات يعظ الناس دون مضايقات أمنية، وآخر ينحصر رجاؤه في الصلاة إماماً بالناس في مواسم الطاعات أو صلاة الفجر دون استدعاءات أمنية.

فقد سُنّت لهم القوانين، التي جعلوها -مع الوقت- ديناً، فلا يستطيع الخروج عن تلك المصفوفة، حتى من تسمون بأهل العلم منهم؛ ومن حاول الخروج عنها ردوه إليها قهراً وقصراً، بل وصاغ فيه العلماء والقادة -تنزلاً- ألفاظاً توحي بخارجيته على الشريعة أو الحاكم الشرعي، وغاية ما فعل الثائر هو الخروج على دينهم الجديد، ودولتهم الحديثة التي نسلت ريشهم، فمنعتهم الطيران، وقلّمت مخالبهم، وخلعت أنيابهم، فاستأنسوهم ليصبحوا مدافعين عن دول الاحتلال التي قهرت الشعوب والمجتمعات.

ولذا فإن كبارهم كانوا يفرحون بتلك القنوات العلمية، والشرائط والمجالس الوعظية، التي سقطت بالكلية عن بكرة أبيها في أول اختبار حقيقي لها.

وعليه؛ فإن خروج القادة الذين يجتمع عليهم الناس، ويجمعون كلمات المتفرقين والرايات المتعددة ليس بالهين خاصة في هذه البلاد، التي لم تخرج بعدُ من الاحتلالات.

وإن رأيت آحاد القادة الذين كسروا تلك القيود، أو واجهوا محتلاً واضح العداء، كما حصل في فلسطين، أو خرج القليل في مصر وسوريا وغيرهما، فهذا له كذلك عوامل من أهمها، محاولة الخروج عن تلك المنظومة المستبدة الجبرية القاهرة.

وكذا بذل الغالي والنفيس، والتضحية بأغلى ما يكون في الحياة، والتقليل من مكتسباتها الظاهرة، وعدم الكلل ولا التعب أبداً خلال الدعوة إلى طريق الحرية المحفوف بالمخاطر، وليس ما أقوله هو من نسج الروايات الخيالية أو القصص المؤلفة للتحفيز، بل أقوله وهو واقع عاشته الأمة في العقود الأخيرة؛ ولو كتبت مثل هذا الكلام قبل السابع من تشرين الأول لعام ٢٠٢٣، لما صدّق الكثير من الكرام إمكانية ذلك، ولكني تأخرت كثيراً في إخراج هذا المقال رجاء أن يرى الناس أُنموذجاً مصغراً مما يمكن للأمة أن تنبته أو تخرجه في ظل هذه الظروف الصعبة، وسيرى الناس فيه آية من آيات الله تعالى، ويقفون حائرين متعجبين مهللين بالتكبير، فرحاً بما صنع هؤلاء الأبطال، وهم تحت الحصار.

فمهما حاول المحتلون وأعوانهم أن يثنوا رجال أمتنا عن دورهم الذي أُوجب عليهم، فلن يستطيعوا، حتى وإن تعاون معهم الخونة من بعض طلبة العلم ومشايخه.

ولذا فإني أختم المقال مع ما فيه من ألم بيقيني في صمود هذه الأمة كوناً وشرعاً، وأننا مازلنا نُبهر العالَمَ بقوتنا وصمودنا، وقدرتنا على القيام بعد السقوط، وإن تكرر، وليس في سردي لأهم العوامل التي ضيعت الأمة مطيّة للقعود، أو التأسف على الماضي، بل هي دعوة صارخة للتحرر، والتمرد على القعدة المرجفين المخذّلين، الذين آثروا بعض الدنيا وملذاتها، واهتموا بمكتسباتهم الشخصية على اختلاف أنواعها..

فيا أيها القائد الصغير، والمسلم الكريم، إني أدعوك للنهوض، ونفض أثرة غبار السفلة، والبحث عن باب شرعي ثقافي علمي تربوي -سمه ما شئت- وجد فيه، واعلم أن من مات على الطريق يكتب الله له أجر نهايته، فرحمة الله منوطة بقدر البذل، لا بتحصيل النتائج المعينة، فلك في حديث النبي ﷺ "...عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النبيَّ ومعهُ الرُّهَيْطُ، والنبيَّ ومعهُ الرَّجُلُ والرَّجُلانِ، والنبيَّ ليسَ معهُ أحَدٌ..." غاية البشرى أن هؤلاء أنبياء، ومع بذلهم لم يؤمن لهم الكثير، لكن مقام الأجر عند الله محفوظ بمحض اصطفاء الله لهم.

والله أعلم وصلى الله على النبي الضحوك القتال وسلم وآله وأتباعه إلى يوم الدين

محمود أبو حمْدة

ليلة الثلاثاء ١١ شعبان ١٤٤٦

١٠ شباط (فبراير) ٢٠٢٥